سورة التوبة

١ـ **سميت هذه السورة**، في أكثر المصاحف، وفي كلام السلف: **سورة براءة** ففي الصحيح عن أبي هريرة، في قصة حج أبي بكر بالناس، قال أبوهريرة: «فأذّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة».

وفي صحيح البخاري، عن زيد بن ثابت قال: «آخر سورة نزلت سورة براءة».

وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، وهي تسمية لها بأول كلمة منها.

وتسمى **سورة التوبة** في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة، فعن ابن عباس «سورة التوبة هي الفاضحة».

وترجم لها الترمذي في جامعه باسم التوبة، ووجه التسمية: أنها وردت فيها توبة الله ـتعالىـ عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهو حدث عظيم.

ووقع هذان الاسمان معاً في حديث زيد بن ثابت، في صحيح البخاري، في باب جمع القرآن، قال زيد: «فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾، حتى خاتمة سورة براءة».

وهذان الاسمان هما الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

ولهذه السورة أسماء أخر وقعت في كلام السلف، من الصحابة والتابعين،

فروي عن ابن عمر، عن ابن عباس: كنا ندعوها (أي سورة براءة) **المُقَشْقِشَة** -بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قَشْقَشَه: إذا أبراه من المرض- كان هذا لقباً لها ولسورة الكافرون لأنهما تخلصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك؛ لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين.

وكان ابن عباس يدعوها الفاضحة، قال: «ما زال ينزل فيها (ومنهم ومنهم) حتى ظننا أنه لا يبقى أحد إلا ذكر فيها».

وأحسب أن ما تحكيه من أحوال المنافقين يعرف به المتصفون بها أنهم المراد، فعرف المؤمنون كثيراً من أولئك مثل قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي﴾ فقد قالها: بعضهم، وسُمِعَتْ منهم، وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ فهؤلاء نقلت مقالتهم بين المسلمين، وقوله ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

وعن حذيفة: أنه سماها **سورة العذاب**؛ لأنها نزلت بعذاب الكفار، أي عذاب القتل والأخذ حين[1] يثقفون.

وعن عبيد بن عمير أنه سماها المُنَقِّرة -بكسر القاف مشددة- لأنها نَقَّرت عمَّا في قلوب المشركين -لعله يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتمالي على نقض العهد، وهو من (نَقَرَ الطائر) إذا أنفى بمنقاره موضعاً من الحصى ونحوه؛ ليَبِيْضَ فيه-.

وعن المقداد بن الأسود، وأبي أيوب الأنصاري: تسميتها **البَحُوث** -بباء

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: حيث. (م)

موحدة مفتوحة في أوله وبمثلثة في آخره بوزن فعول- بمعنى الباحثة وهو مثل تسميتها **المنقرة**.

وعن الحسن البصري أنه دعاها **الحافرة**، ؛كأنها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق؛ فأظهرته للمسلمين.

وعن قتادة: أنها تسمى **المثيرة**؛ لأنها أثارت عورات المنافقين، وأظهرتها.

وعن ابن عباس أنه سماها **المُبَعْثِرة**؛ لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين، أي أخرجتها من مكانها.

وفي الإتقان: أنها تسمى **المخزية** بالخاء والزاي المعجمة وتحتية بعد الزاي وأحسب أن ذلك لقوله -تعالى-: ﴿أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

وفي الإتقان أنها تسمى **المنكّلة**، أي بتشديد الكاف.

وفيه أنها تسمى **المشددة**.

وعن سفيان أنها تسمى **المُدَمْدِمة** بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنها كانت سبب هلاك المشركين. فهذه أربعة عشر اسماً. ١٠/٩٥-٩٧

٢- **وهي مدنية بالاتفاق**، قال في الإتقان: واستثنى بعضهم قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ الآية.

ففي صحيح البخاري أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبيﷺ فقال: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**» فقال أبو جهل وعبدالله ابن أبي أمية: «يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب»؛ فكان آخر قول أبي طالب: أنه على ملة عبدالمطلب، فقال النبي «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**».

وتوفي أبو طالب فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾.
٩٧/١٠

٣ـ **فافتتحت السورةُ** بتحديد مدةِ العهودِ التي بين النبي ﷺ وبين المشركين، وما يتبع ذلك من حالة حرب وأمن، وفي خلال مدة الحرب مدة تمكينهم من تلقي دعوة الدين وسماع القرآن.

وأتبع بأحكام الوفاء والنكث وموالاتهم.

ومنعُ المشركين من دخول المسجد الحرامِ وحضورِ مناسك الحج.

وإبطالُ مناصبِ الجاهلية التي كانوا يعتزون بأنهم أهلُها.

وإعلانُ حالةِ الحرب بين المسلمين وبينهم.

وإعلانُ الحربِ على أهل الكتاب من العرب حتى يعطوا الجزية، وأنهم ليسوا بعيداً من أهل الشرك، وأن الجميع لا تنفعهم قُوَّتُهم ولا أموالُهم.

وحرمةُ الأشهرِ الحرامِ، وضبطُ السَّنَةِ الشرعيةَ، وإبطالُ النسيء الذي كان عند الجاهلية.

وتحريضُ المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير للقتال في سبيل الله، ونصر النبي ﷺ وأن الله ناصرُ نبيِّه، وناصرُ الذين ينصرونه.

وتذكيرُهم بنصر الله رسولَه يومَ حنين، وبنصره إذ أنجاه من كيد المشركين بما هَيَّأَ له من الهجرة إلى المدينة، والإشارةُ إلى التجهيز بغزوة تبوك.

وذمُّ المنافقين المتثاقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلف بلا عذر.

وصفاتُ أهل النفاق من جبن، وبخل، وحِرْصٍ على أخذ الصدقات مع أنهم ليسوا بمستحقيها.

وذكرُ أذاهم الرسولَ ﷺ بالقول، وأيمانِهم الكاذبةِ، وأمرِهم بالمنكرِ، ونهيِهم عن المعروفِ، وكذبِهم في عهودهم، وسخريتِهم بضعفاء المؤمنين.

والأمرُ بضرب الجزية على أهل الكتاب، ومذمةُ ما أدخله الأحبارُ والرهبانُ في دينهم من العقائد الباطلة، ومن التكالب على الأموال.

وأمرُ اللهِ بجهاد الكفار والمنافقين.

ونهيُ المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم، والاستغفارِ لهم.

ونهيُ نبيه ﷺ عن الصلاة على موتاهم.

وضربُ المثلِ بالأمم الماضية.

وذكرُ الذين اتخذوا مسجد الضرارِ عن سوء نية، وفَضْلُ مسجدِ قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

وانتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم، ومهاجرهم ومتخلِّفهم.

وقوبلت صفاتُ أهلِ الكفر والنفاق بأضدادها صفاتِ المسلمين، وذكر ما أعد لهم من الخير.

وذُكِرَ في خلال ذلك فَضْلُ أبي بكر، وفَضْلُ المهاجرين والأنصار.

والتحريضُ على الصدقة، والتوبة، والعمل الصالح.

والجهاد، وأنه فرضٌ على الكفاية.

والتذكيرُ بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

والتنويهُ بغزوةِ تبوكَ وجيشها.

والذين تاب اللهُ عليهم من المتخلفين عنها.

والامتنانُ على المسلمين بأن أرسل فيهم رسولاً منهم جَبَلَه على صفاتٍ فيها كلٌّ خيرلهم.

وشَرْعُ الزكاةِ ومصارفها، والأمرُ بالفقه في الدين، ونَشْرُ دعوةِ الدين. ١٠/٩٩_١٠١

٤_ ﴿بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ **افتتحت** السورة كما تفتتح العهود، وصكوك العقود بأدل كلمة على الغرض الذي يراد منها كما في قولهم هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان، وقول الموثقين: باع أو وكل أو تزوج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها.

وتنكيرُ (براءة) تنكير التنويع، وموقع (براءة) مبتدأ، وسوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التنويع للإشارة إلى أن هذا النوع كافٍ في فهم المقصود. ١٠/١٠٢_١٠٣

٥_ **والبراءة**: الخروج والتفصي مما يتعب، ورَفْعُ التبعة.

ولما كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه، ويعد الإخلاف بشيء منه غدراً على المُخلِف _ كان الإعلان بفسخ العهد براءةً من التبعات التي كانت بحيث تنشأ عن إخلاف العهد؛ فلذلك كان لفظ (براءة) هنا

مفيداً معنى فسخ العهد، ونبذه؛ ليأخذ المعاهدون حذرهم.

وقد كان العرب ينبذون العهد، ويردون الجوار إذا شاءوا؛ تنهية الالتزام بهما، كما فعل ابن الدّغُنّه في رد جوار أبي بكر عن قريش، وما فعل عثمان بن مظعون في رد جوار الوليد بن المغيرة إياه قائلاً: «رضيت بجوار ربي، ولا أريد أن أستجير غيره».

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ أي: ولا تَخُنْهم لظنك أنهم يخونونك فإذا ظننته فافسخ عهدك معهم. ١٠/١٠٣

٦- وجملة ﴿ وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لما تتضمنه تلك الجملة من معنى الأمر، فكأنه قيل: فآذنوا الناس ببراءة الله ورسوله من المشركين، وبأن من تاب منهم فقد نجا، ومن أعرض فقد أوشك على العذاب، ثم قال: وبشر المعرضين المشركين بعذاب أليم.

والبشارة: أصلها الإخبار بما فيه مسرة، وقد استعيرت هنا للإنذار، وهو الإخبار بما يسوء، على طريقة التهكم، كما تقدم في قوله -تعالى-: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في سورة آل عمران.

والعذاب الأليم: هو عذاب القتل، والأسر، والسبي، وفيء الأموال، كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾.

فإن تعذيبهم يوم حنين بعضه بالقتل، وبعضه بالأسر والسبي، وغَنْم الأموال، أي: أنذر المشركين بأنك مقاتلهم وغالبهم بعد انقضاء الأشهر الحرم، كما يدل عليه قوله: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. ١١١/١٠

٧ـ **وفي الكلام تنويه بمعالي أخلاق المسلمين**، وغَضٌّ من أخلاق أهل الشرك، وأن سبب ذلك الغض الإشراك الذي يفسد الأخلاق، ولذلك جُعِلوا قوماً لا يعلمون دون أن يقال بأنهم لا يعلمون؛ للإشارة إلى أن نفي العلم مطرد فيهم، فيشير إلى أن سبب اطراده فيهم هو نشأته عن الفكرة الجامعة لأشتاتهم، وهي عقيدة الإشراك.

والعلم، في كلام العرب: بمعنى العقل، وأصالة الرأي، وأن عقيدة الشرك مضادة لذلك، أي كيف يعبد ذو الرأي حجراً صنعه، وهو يعلم أنه لا يغني عنه. ١٢٠/١٠

٨ـ و**(السقاية)**: صيغة للصناعة، أي صناعة السقي، وهي السقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السقاية إلى الحاج.

وكذلك (العمارة): صناعة التعمير، أي القيام على تعمير شيء، بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك، وهي هنا: غير ما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وأضيفت إلى المسجد الحرام لأنها عمل في ذات المسجد.

وتعريف الحاج تعريف الجنس.

وقد كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش في الجاهلية، والمناصب عشرة، وتسمى المآثر؛ فكانت السقاية لبني هاشم ابن عبدمناف بن قصي وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبدالمطلب، وكانت عمارة

المسجد، وهي السدانة، وتسمى الحجابة، لبني عبدالدار بن قصي وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة.

وكانت لهم مناصب أخرى ثمانية أبطلها الإسلام رأيتها بخط جدي العلامة الوزير[١] وهي: الديات، والحمالات، السفارة، الراية، الرفادة، المشورة، الأعنة والقبة، الحكومة وأموال الآلهة، الأيسار.

فأما الديات والحمالات: فجمع دية وهي عوض دم القتيل خطأً أو عمداً إذا صولح عليه؛ وجمع حمالة بفتح الحاء المهملة وهي الغرامة التي يحملها قوم عن قوم، وكانت لبني تيم بن مرة بن كعب، ومرة جد قصي، وجاء الإسلام وهي بيد أبي بكر الصديق.

وأما السِّفارة ـبكسر السين وفتحهاـ: فهي السعي بالصلح بين القبائل.

والقائم بها يسمى سفيراً، وكانت لبني عدي بن كعب أبناء عم لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد عمر بن الخطاب.

وأما الراية، وتسمى: العُقَاب ـبضم العينـ لأنها تخفق فوق الجيش كالعقاب، فهي راية جيش قريش، وكانت لبني أمية، وجاء الإسلام وهي بيد أبي سفيان بن حرب.

وأما الرفادة: فهي أموال تخرجها قريش؛ إكراماً للحجيج، فيطعمونهم جميع أيام الموسم يشترون الجُزُر والطعام والزبيب ـللنبيذـ وكانت لبني نوفل ابن عبدمناف، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن عامر بن نوفل.

---

١ ـ يعني جده لأمه الوزير بوعتور. (م)

وأما المشورة: فهي ولاية دار الندوة، وكانت لبني أسد بن عبدالعزى ابن قصي، وجاء الإسلام وهي بيد زيد بن زمعة.

وأما الأعنة والقُبَّة: فقبة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش، وسميت الأعنة وكانت لبني مخزوم، وهم أبناء عم قصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد ابن الوليد.

وأما الحكومة وأموال الآلهة ولم أقف على حقيقتها: فأحسب أن تسميتها الحكومة، لأن المال المتجمع بها هو ما يحصل من جزاء الصيد في الحرم، أو في الإحرام.

وأما تسميتها أموال الآلهة لأنها أموال تحصل من نحو السائبة والبحيرة، وما يوهب للآلهة من سلاح ومتاع؛ فكانت لبني سهم، وهم أبناء عم لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن قيس بن سهم.

وأما الأيسار وهي الأزلام التي يستقسمون بها: فكانت لبني جمح، وهم أبناء عم لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد صفوان بن أمية بن خلف.

وقد أبطل الإسلام جميع هذه المناصب، عدا السدانة والسقاية، لقول النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع: «**ألا إن كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج، وسدانة البيت**». ١٠/١٤٣-١٤٥

٩- و(**نجس**): صفة مشبهة، اسم للشيء الذي النجاسة صفة ملازمة له، وقد أنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك؛ فعلمنا أنها نجاسة معنوية نفسانية، وليست نجاسة ذاتية.

والنجاسة المعنوية: هي اعتبار صاحب وصف من الأوصاف محقراً متجنباً من الناس؛ فلا يكون أهلاً لفضل ما دام متلبساً بالصفة التي جعلته كذلك؛ فالمشرك نجس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسده نظيفاً مطيباً لا يستقذر، وقد يكون مع ذلك مستقذر الجسد ملطخاً بالنجاسات؛ لأن دينه لا يطلب منه التطهر، ولكن تنظفهم يختلف باختلاف عوائدهم وبيئتهم.

والمقصود من هذا الوصف لهم في الإسلام تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير.

ولا شك أن خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أوجب الغسل على المشرك إذا أسلم؛ انخلاعاً عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسية لإزالة خباثة نفسه، وإن طهارة الحدث لقريب من هذا. ١٠/١٥٩ـ١٦٠

١٠ـ **والجزية:** اسم لمال يعطيه رجالُ قومٍ جزاءً على الإبقاء بالحياة، أو على الإقرار بالأرض، بنيت على وزن اسم الهيئة، ولا مناسبة في اعتبار الهيئة هنا؛ فلذلك كان الظاهر هذا الاسم أنه مُعَرَّب عن كلمة (كِزْيَتْ) بالفارسية بمعنى الخراج نقله المفسرون عن الخوارزمي، ولم أقف على هذه الكلمة في كلام العرب في الجاهلية، ولم يعرج عليها الراغب في مفردات القرآن.

ولم يذكروها في مُعَرَّب القرآن؛ لوقوع التردد في ذلك لأنهم وجدوا مادة الاشتقاق العربي صالحة فيها.

ولا شك أنها كانت معروفة المعنى للذين نزل القرآن بينهم؛ ولذلك عرفت في

هذه الآية. ١٠/١٦٦

١١ـ **والأحبار**: جمع حَبْر ـ بفتح الحاء ـ وهو العالم من علماء اليهود.

الرهبان: اسم جمع لراهب، وهو التقي المنقطع لعبادة الله من أهل دين النصرانية، وإنما خص الحبر بعالم اليهود؛ لأن عظماء دين اليهودية يشتغلون بتحرير علوم شريعة التوراة؛ فهم علماء في الدين، وخص الراهب بعظيم دين النصرانية؛ لأن دين النصارى قائم على أصل الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة. ١٠/١٧٠

١٢ـ **والباطل يشمل وجوهاً كثيرة**، منها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء الناس، ومنها القضاء بين الناس بغير إعطاء صاحب الحقِّ حقَّه المعين له في الشريعة، ومنها جحد الأمانات عن أربابها أو عن ورثتهم، ومنها أكل أموال اليتامى، وأموال الأوقاف والصدقات. ١٠/١٧٥

١٣ـ ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ استئناف ابتدائي لإقامة نظام التوقيت للأمة على الوجه الحق الصالح لجميع البشر، والمناسب لما وضع الله عليه نظام العالم الأرضي، وما يتصل به من نظام العوالم السماوية بوجه محكم لا مدخل لتحكمات الناس فيه، وليوضّح تعيين الأشهر الحرم من قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ بعد ما عقب ذلك من التفاصيل في أحكام الأمن والحرب مع فرق الكفار من المشركين وغيرهم.

والمقصود ضبط الأشهر الحرم، وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء

الذي أفسد أوقاتها، وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حُرْمَةَ ما له حُرْمَةٌ منها، وأكسب حرمةً لما لا حرمةَ له منها.

وإن ضبط التوقيت من أصول إقامة نظام الأمة ودفع الفوضى عن أحوالها.

وافتتاح الكلام بحرف التوكيد للاهتمام بمضمونه؛ لتتوجه أسماع الناس وألبابهم إلى وعيه.

والمراد بالشهور: الشهور القمرية بقرينة المقام؛ لأنها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم، وهي أقدمُ أَشْهُرِ التوقيت في البشر، وأضْبَطُها؛ لأن اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرد المشاهدة؛ فإن القمر كُرَةٌ تابعةٌ لنظام الأرض.

قال ـ تعالى ـ: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

ولأن الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ؛ لأنها لا تتناولها أيدي الناس بالتغيير والتبديل، وما حدثت الأشهر الشمسية وسنتها إلا بعد ظهور علم الفلك والميقات؛ فانتفع الناس بنظام سير الشمس في ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حساباً لتوقيت الأعمال التي لا يصلح لها إلا بعض الفصول، مثل الحرث والحصاد، وأحوال الماشية.

وقد كان الحساب الشمسي معروفاً عند القبط والكلدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسية للأعياد.

ومعلوم أن الأعياد في الدرجة الثانية من أحوال البشر؛ لأنها راجعة إلى التحسين؛ فأما ضبط الأشهر فيرجع إلى الحاجي؛ فألهم الله البشر فيما ألهمهم من

تأسيس أصول حضارتهم أَن اتخذوا نظاماً لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأَنْ جعلوه مستنداً إلى مشاهدات بينةٍ واضحة لسائر الناس، لا تنحجب عنهم إلا قليلاً في قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة.

وألهمهم أَنِ اهتدوا إلى ظواهر مما خلق الله له نظاما مطرداً، وذلك كواكب السماء ومنازلها، كما قال في بيان حكمة ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.

وأَنْ جعلوا توقيتهم اليومي مستنداً إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم؛ لأنهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس في مشاهدة ذلك، وبذلك تنظم اليوم والليلة.

وجعلوا توقيتهم الشهري بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو المسمى هلالاً إلى انتهاء مَحَاقِه، فإذا عاد إلى مثل الظهور الأول فذلك ابتداء شهر آخر.

وجعلوا مراتبَ أعدادِ أجزاءِ المدةِ المسماة بالشهر مرتبةً بتزايد ضوء النصف المضيء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حَذْوَ شكلٍ من النجوم سموه بالمنازل.

وقد وجدوا ذلك على نظام مطرد، ثم ألهمهم، فَرَقَبُوا المدة التي عاد فيها الثمر أو الكلأ الذي ابتدأوا في مثله العد وهي أوقات الفصول الأربعة، فوجدوها قد احتوت على اثني عشر شهراً؛ فسموا تلك المدة عاماً، فكانت الأشهر لذلك اثني عشر شهراً؛ لأن ما زاد على ذلك يعود إلى مثل الوقت الذي ابتدأوا فيه

الحساب أول مرة، ودعوها بأسماء؛ لتمييز بعضها عن بعض؛ دفعاً للغلط.

وجعلوا لابتداء السنين بالحوادث على حسب اشتهارها عندهم إن أرادوا ذلك، وذلك واسع عليهم؛ فلما أراد الله أن يجعل للناس عباداتٍ ومواسمَ وأعياداً دوريةً تكون مرة في كل سنة ـ أمرهم أن يجعلوا العبادة في الوقت المماثل لوقت أختها؛ فَفُرِضَ على إبراهيمَ وبنيه حَجُّ البيت كل سنة في الشهر الثاني عشر، وجعل لهم زمناً محترماً بينهم يأمنون فيه على نفوسهم وأموالهم ويستطيعون فيه السفر البعيد وهي الأشهر الحرم؛ فلما حصل ذلك كله بمجموع تكوين الله ـتعالى ـ للكواكب، وإيداعه الإلهام بالتفطن لحكمتها، والتمكن من ضَبْطِ مُطَّرد أحوالها، وتعيينه ما عين من العبادات والأعمال بمواقيتها ـ كان ذلك كله مراداً عنده؛ فلذلك قال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾.

فمعنى قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾: أنها كذلك في النظام الذي وضع عليه هذه الأرض التي جعلها مَقَرَّ البشر باعتبار تمايز كل واحد فيها عن الآخر، فإذا تجاوزت الاثني عشر صار ما زاد على الاثني عشر مماثلاً لنظير له في وقت حلوله فاعتبر شيئاً مكرراً. ١٠/١٨٠ـ١٨٢

١٤ـ **ومعنى ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾**: في تقديره، وهو التقدير الذي به وجدت المقدورات، أعني تعلق القدرة بها تعلقاً تنجيزياً كقوله: ﴿كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ أي قدراً محدداً، فكتاب هنا مصدر.

بيان ذلك أنه لما خلق القمر على ذلك النظام أراد من حكمته أن يكون طريقاً

لحساب الزمان كما قال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ولذلك قال هنا: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فـ (يوم) ظرف لـ(كتاب الله) بمعنى التقدير الخاص؛ فإنه لما خلق السماوات والأرض كان مما خلق هذا النظام المتنسب بين القمر والأرض.

ولهذا الوجه ذكرت الأرض مع السماوات دون الاقتصار على السماوات؛ لأن تلك الظواهر التي للقمر، وكان بها القمر مجزءاً أجزاءً منذ كونه هلالاً إلى ربعه الأول، إلى البدر، إلى الربع الثالث، إلى المحاق، وهي مقادير الأسابيع - إنما هي مظاهر بحسب سمته من الأرض وانطباع ضوء الشمس على المقدار البادي منه للأرض، ولأن المنازل التي يحل فيها بعدد ليالي الشهر هي منازل فَرَضِيَّة بمرأى العين على حسب مسامتته الأرضَ من ناحية إحدى تلك الكتل من الكواكب، التي تبدو للعين مجتمعة، وهي في نفس الأمر لها أبعاد متفاوتة لا تآلف بينها ولا اجتماع، ولأن طلوع الهلال في مثل الوقت الذي طلع فيه قبل أحد عشر طلوعاً من أي وقت ابتدئ منه العد من أوقات الفصول - إنما هو باعتبار أحوال أرضية.

فلا جَرَمَ كان نظام الأشهر القمرية وسنتها حاصلاً من مجموع نظام خلق الأرض وخلق السماوات، أي الأجرام السماوية وأحوالها في أفلاكها، ولذلك ذكرت الأرض والسماوات معاً.

وهذه الأشهر معلومة بأسمائها عند العرب، وقد اصطلحوا على أن جعلوا ابتداء حسابها بعد موسم الحج، فمبدأ السنة عندهم هو ظهور الهلال الذي بعد

انتهاء الحج وذلك هلال المحرم، فلذلك كان أول السنة العربية شهر المحرم بلا شك، ألا ترى قول لبيد:

حتـى إذا سـلخا جمـادى سـتـةً جزءاً فطال صيامُه وصيامُها

أراد جمادى الثانية فوصفه بستة لأنه الشهر السادس من السنة العربية.

وقرأ الجمهور ﴿ اثْنَا عَشَرَ ﴾ بفتح شين (عشر) وقرأه أبو جعفر ﴿ اثْنَا عَشْرَ ﴾ بسكون عين (عشر) مع مد ألف (اثنا) مشبعاً.

والأربعة الحرم هي المعروفة عندهم: ثلاثة منها متوالية لا اختلاف فيها بين العرب وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، والرابع فرد وهو رجب عند جمهور العرب، إلا ربيعة فهم يجعلون الرابع رمضان، ويسمونه رجباً.

وأحسب أنهم يصفونه بالثاني مثل ربيع وجمادى، ولا اعتداد بهؤلاء؛ لأنهم شذوا كما لم يعتد بالقبيلة التي كانت تحل أشهر السنة كلها، وهي قضاعة.

وقد بين إجمال هذه الآية النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع بقوله: «**منها أربعة حرم: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**».

وتحريم هذه الأشهر الأربعة مما شرعه الله لإبراهيم -عليه السلام- لمصلحة الناس، وإقامة الحج، كما قال -تعالى-: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾. ١٠/١٨٢-١٨٤

١٥- **واعلم أن تفضيل الأوقات والبقاع** يشبه تفضيل الناس؛ فتفضيل الناس بما يصدر عنهم من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكريمة، وتفضيل غيرهم مما لا إرادة له بما يقارنه من الفضائل الواقعة فيه، أو المقارنة له؛ فتفضيل الأوقات

والبقاع إنما يكون بجعل الله -تعالى- بخبر منه، أو بإطلاع على مراده؛ لأن الله إذا فضَّلها جعلها مظانَّ لِتَطَلُّب رضاه، مثل كونها مظانَّ إجابةِ الدعوات، أو مضاعفة الحسنات، كما قال -تعالى-: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي من عبادة ألف شهر لمن قبلنا من الأمم.

وقال النبي ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**».

والله العليم بالحكمة التي لأجلها فضل زمن على زمن، وفضل مكان على مكان، والأمور المجعولة من الله -تعالى- هي شؤون وأحوال أرادها الله؛ فَقَدَّرها؛ فأشبهت الأمور الكونية، فلا يبطلها إلا إبطال من الله -تعالى- كما أبطل تقديس السبت بالجمعة.

وليس للناس أن يجعلوا تفضيلاً في أوقات دينية؛ لأن الأمور التي يجعلها الناس تشبه المصنوعات اليدوية، ولا يكون لها اعتبار إلا إذا أريدت بها مقاصد صالحة؛ فليس للناس أن يغيروا ما جعله الله -تعالى- من الفضل لأزمنة أو أمكنة أو ناس.
١٨٤/١٠

١٦- فكون عدة الشهور اثني عشر تحقق بأصل الخلقة؛ لقوله عقبه: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

وكون أربعةٍ من تلك الأشهر أشهراً حرماً تحقق بالجعل التشريعي للإشارة عقبه بقوله ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

فحصل من مجموع ذلك أن كون الشهور اثني عشر وأن منها أربعة حرماً اعتبر

من دين الإسلام، وبذلك نُسِخَ ما كان في شريعة التوراة من ضبط مواقيت الأعياد الدينية بالتاريخ الشمسي، وأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية. ١٠/١٨٥

١٧ـ **والنسيء:** يطلق على الشهر الحرام الذي أُرْجِئَت حُرْمَتُه، وجعلت لشهر آخر؛ فالنسيء فعيل بمعنى مفعول من نسأ المهموز اللام، ويطلق مصدراً بوزن فعيل مثل نذير من قوله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَذِيْر ﴾.

ومثل النكير والعذر[1] وفعله نسأ المهموز، أي أَخَّر؛ فالنسيء بهمزة بعد الياء في المشهور، وبذلك قرأه جمهور العشرة، وقرأه ورش عن نافع بياء مشددة في آخره على تخفيف الهمزة ياء وإدغامها في أختها، والإخبار عن النسيء بأنه زيادة إخبار بالمصدر كما أخبر عن هاروت وماروت بالفتنة في قوله: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾.

والنسيء عند العرب: تأخيرٌ يجعلونه لشهر حرام؛ فَيُصَيِّرونه حلالاً، ويحرمون شهراً آخر من الأشهر الحلال عوضاً عنه في عامه.

والداعي الذي دعا العرب إلى وضع النسيء أن العرب سَنَتُهم قَمَرِيَّةٌ تبعاً للأشهر، فكانت سَنَتُهم اثني عشر شهراً قمرية تامة، وداموا على ذلك قروناً طويلة ثم بدا لهم؛ فجعلوا النسيء.

وأحسن ما روي في صفة ذلك قول أبي وائل[2] أن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها؛ فقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئاً لنهلكن.

---

١ ـ لعله: العذير. (م)

٢ ـ هكذا يؤخذ من مجموع كلام الطبري وابن عطية والقربي مع حذف المتداخل.

وسكت المفسرون عما نشأ بعد قول العرب هذا، ووقع في بعض ما رواه الطبري والقرطبي ما يوهم أن أول من نسأ لهم النسيء هو جنادة بن عوف وليس الأمر ذلك؛ لأن جنادة بن عوف أدرك الإسلام وأَمْرُ النسيءِ مُتَوَغِّلٌ في القدم.

والذي يجب اعتماده أن أول من نسأ النسيء هو حذيفة بن عبدنعيم أو فقيم -ولعل نعيم تحريف فقيم؛ لقول ابن عطية اسم نعيم لم يعرف في هذا- وهو الملقب بالقَلَمّس؛ ولا يوجد ذكر بني فقيم في جمهرة ابن حزم، وقد ذكره صاحب القاموس وابن عطية.

قال ابن حزم أول من نسأ الشهور سرير -كذا ولعله سري- بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة، ثم ابن أخيه عدي بن عامر بن ثعلبة.

وفي ابن عطية خلاف ذلك قال: انتدب القَلَمَّسُ وهو حذيفة بن عبدفقيم، فنسأ لهم الشهور، ثم خلفه ابنه عباد، ثم ابنه قُلَع، ثم ابنه أمية، ثم ابنه عوف، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة، وعليه قام الإسلام، قال ابن عطية: «كان بنو فقيم أهل دين في العرب، وتَمسُّكٍ بشرع إبراهيم؛ فانتدب منهم القلمس وهو حذيفة ابن عبدفقيم، فنسأ الشهور للعرب».

وفي تفسير القرطبي عن الضحاك عن ابن عباس: «أول من نسأ عمرو ابن لحي» -أي الذي أدخل عبادة الأصنام في العرب وبحر البحيرة وسيب السائبة-.

وقال الكلبي: «أول من نسأ رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة».

١٠/١٨٩-١٩٠

١٨- وتقريب زمن ابتداء العمل بالنسيء في أواخر القرن الثالث قبل الهجرة،

أي في حدود سنة عشرين ومائتين قبل الهجرة. ١٩١/١٠

١٩ ـ **ووجه كونه كفراً** أنهم يعلمون أن الله شرع لهم الحج، وَوَقَّتَه بشهر من الشهور القمرية المعدودة المسماة بأسماء تميزها عن الاختلاط، فلما وضعوا النسيء قد علموا أنهم يجعلون بعض الشهور في غير موقعه، ويسمونه بغير اسمه، ويصادفون إيقاع الحج في غير الشهر المعين له، أعني شهر ذي الحجة؛ ولذلك سموه النسيء اسماً مشتقاً من مادة النَّسَاء وهو التأخير، فهم قد اعترفوا بأنه تأخير شيء عن وقته، وهم في ذلك مستخفون بشرع الله ـ تعالى ـ ومخالفون لما وقت لهم عن تَعَمُّدٍ مثبتين الحِلَّ لشهر حرام، والحرمةَ لشهر غير حرام، وذلك جرأة على دين الله واستخفاف به؛ فلذلك يشبه جعلهم لله شركاء؛ فكما جعلوا لله شركاء في الإلهية جعلوا من أنفسهم شركاء لله في التشريع يخالفونه فيما شرعه؛ فهو بهذا الاعتبار كالكفر؛ فلا دلالة في الآية على أن الأعمال السيئة توجب كفر فاعلها، ولكن كفر هؤلاء أوجب عملهم الباطل. ١٩١/١٠

٢٠ ـ و﴿ **خِفَافاً** ﴾ جمع خفيف وهو صفة مشبهة من الخفة، وهي حالة للجسم تقتضي قلة كمية أجزائه بالنسبة إلى أجسام أخرى متعارفة، فيكون سهل التنقل سهل الحمل.

والثقال: ضد ذلك، وتقدم الثقل آنفاً عند قوله: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾.

والخفاف والثقال هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقهم؛ فالخفة تستعار للإسراع إلى الحرب، وكانوا يتمادحون بذلك لدلالتها على الشجاعة والنجدة، قال قريط بن أنيف العنبري:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

فالثقل الذي يناسب هذا هو الثبات في القتال كما في قول أبي الطيب:

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا

وتستعار الخفة لقلة العدد، والثقل لكثرة عدد الجيش كما في قول قريط: «زرافات ووحدانا».

وتستعار الخفة لتكرير الهجوم على الأعداء، والثقل للتثبت في الهجوم. وتستعار الخفة لقلة الأزواد أو قلة السلاح، والثقل لضد ذلك.

وتستعار الخفة لقلة العيال، والثقل لضد ذلك، وتستعار الخفة للركوب؛ لأن الراكب أخف سيراً، والثقل للمشي على الأرجل وذلك في وقت القتال، قال النابغة:

على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ ... بهن كلومٌ بين دامٍ وجالب[1]

إذ استُنْزِلوا عنهن للضرب أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

وكل هذه المعاني صالحة للإرادة من الآية.

ولما وقع ﴿خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ حالاً من فاعل ﴿انفِرُوا﴾ كان محمل بعض معانيهما على أن تكون الحال مقدرة والواو العاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى للتقسيم، فهي بمعنى (أو) والمقصود الأمر بالنفير في جميع الأحوال.

والمجاهدة: المغالبة للعدو، وهي مشتقة من الجُهد بضم الجيم أي بذل الاستطاعة في المغالبة، وهو حقيقة في المدافعة بالسلاح؛ فإطلاقه على بذل المال في الغزو من إنفاق على الجيش واشتراء الكراع والسلاح مجاز بعلاقة السببية.

---

١ ـ أي على خيل عارفات للطعان أي متعودات به.

وقد أمر الله بكلا الأمرين، فمن استطاعهما معاً وجبا عليه، ومن لم يستطع إلا واحداً منهما وجب عليه الذي استطاعه منهما.

وتقديم الأموال على الأنفس هنا: لأن الجهاد بالأموال أقل حضوراً بالذهن عند سماع الأمر بالجهاد؛ فكان ذكره أهم بعد ذكر الجهاد مجملاً. ١٠/٢٠٦ـ٢٠٧

٢١ـ **والعَرَض:** ما يعرض للناس من متاع الدنيا، وتقدم في قوله ـتعالى ـ: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى ﴾ في سورة الأعراف، وقوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ في سورة الأنفال والمراد به الغنيمة.

والقريب: الكائن على مسافة قصيرة، وهو هنا مجاز في السهل حصولُه.

و﴿ قَاصِداً ﴾ أي وسطاً في المسافة غير بعيد.

واسم كان محذوف دل عليه الخبر، أي لو كان العرض عرضاً قريباً، والسفر سفراً متوسطاً، أو لو كان ما تدعوهم إليه عرضاً قريباً وسفراً.

والشُّقَّة ـ بضم الشين ـ المسافة الطويلة. ١٠/٢٠٨

٢٢ـ ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

وعن الشعبي، وعروة، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة أن عبد الله بن أُبي ابن سلول مرض فسأل ابنه عبدالله بن عبدالله النبيﷺ أن يستغفر له؛ ففعل؛ فنزلت؛ فقال النبيﷺ إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين؛ فنزلت ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾.

والذي يظهر لي أن رسول اللهﷺ لما أوحي إليه بآية سورة المنافقين، وفيه أن

استغفاره وعدمه سواء في حقهم ـ تأول ذلك على الاستغفار غير المؤكد، وبَعَثَتْهُ رَحْمَتُهُ بالناس، وحِرْصُه على هُداهم، وتَكَدُّرُه من اعتراضهم عن الإيمان ـ أن يستغفر للمنافقين استغفاراً مكرراً مؤكداً عسى أن يغفر الله لهم، ويزول عنهم غضبه ـتعالىـ فيهديهم إلى الإيمان الحق بما أن مخالطتهم لأحوال الإيمان ولو في ظاهر الحال قد يجر إلى تعلق هديه بقلوبهم بأقل سبب؛ فيكون نزول هذه الآية تأييساً من رضى الله عنهم، أي عن البقية الباقية منهم تأييساً لهم، ولمن كان على شاكلتهم ممن أطلع على دخائلهم، فاغتبط بحالهم بأنهم انتفعوا بصحبة المسلمين والكفار، فالآية تأييس من غير تعيين. ١٠/٢٧٧

٢٣ـ و﴿ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ : غير مراد به المقدار من العدد بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تستعمل في معنى الكثرة.

قال الكشاف: «السبعون جار مجرى المثل في كلامهم؛ للتكثر».

ويدل له قول النبيﷺ : «**لو أعلم أني لو زدت على السبعين غُفِرَ له ـ لزدت**».

وهو ما رواه البخاري والترمذي من حديث عمر بن الخطاب.

وأما ما رواه البخاري من حديث أنس بن عياض وأبي أسامة عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**وسأزيد على السبعين**» فهو توهم من الراوي؛ لمنافاته رواية عمر بن الخطاب، ورواية عمر أرجح؛ لأنه صاحب القصة، ولأن تلك الزيادة لم تروَ من حديث يحيى بن سعيد عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر عند الترمذي وابن ماجه والنسائي. ١٠/٢٧٨

٢٤ـ ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : تفريع

كلام على الكلام السابق من ذكر فرحهم، ومن إفادة قوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ من التعريض بأنهم أهلها وصائرون إليها.

والضحك هنا: كناية عن الفرح، أو أريد ضحكهم فرحاً؛ لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبي ﷺ إذ أذن لهم بالتخلف.

والبكاء: كناية عن حزنهم في الآخرة فالأمر بالضحك وبالبكاء مستعمل في الإخبار بحصولهما قطعاً؛ إذ جعلا من أمر الله، أو هو أمر تكوين مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ والمعنى أن فرحهم زائل، وأن بكاءهم دائم.

والضحك: كيفية في الفم تتمدد منها الشفتان، وربما أسفرتا عن الأسنان، وهي كيفية تعرض عند السرور والتعجب من الحسن.

والبكاء: كيفية في الوجه والعينين تنقبض بها الوجنتان والأسارير والأنف، ويسيل الدمع من العينين، وذلك يعرض عند الحزن والعجز عن مقاومة الغلب.

وقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حال من ضميرهم، أي جزاء لهم، والمجعول جزاء هو البكاء المعاقب للضحك القليل؛ لأنه سلب نعمة بنقمة عظيمة.

وما كانوا يكسبون هو أعمال نفاقهم، واختير الموصول في التعبير عنه؛ لأنه أشمل مع الإيجاز. ١٠/٣٨١-٣٨٢

٢٥ـ ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استئناف ابتدائي رجع به الكلام إلى أحوال المعذِّرين من الأعراب والذين كذبوا الله ورسوله منهم، وما بين ذلك استطراد دعا إليه قرن الذين كذبوا الله ورسوله في الذكر مع الأعراب؛ فلما تقضَّى الكلام على

أولئك تخلص إلى بقية أحوال الأعراب.

وللتنبيه على اتصال الغرضين وقع تقديم المسند إليه، وهو لفظ ﴿ الأَعْرَابُ ﴾ للاهتمام به من هذه الجهة، ومن وراء ذلك تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب؛ لأنهم؛ لبعدهم عن الاحتكاك بهم، والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم، ويظنون بجميعهم خيراً.

و﴿ أَشَدُ ﴾ و﴿ أَجْدَرُ ﴾: اسما تفضيل، ولم يذكر معهما ما يدل على مفضل عليه، فيجوز أن يكونا على ظاهرهما، فيكون المفضل عليه أهل الحضر، أي كفار ومنافقي المدينة، وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين.

وازديادهم في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفار ومنافقي المدينة.

ومنافقوهم أشد نفاقاً من منافقي المدينة.

وهذا الازدياد راجع إلى تَمَكُّن الوصفين من نفوسهم، أي كفرهم أمكن في النفوس من كفر كفار المدينة، ونفاقهم أمكن من نفوسهم كذلك، أي أمكن في جانب الكفر منه، والبعد عن الإقلاع عنه وظهور بوادر الشر منهم؛ **وذلك أن غلظ القلوب، وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشةً ونفوراً.**

ألا تعلم أن ذا الخويصرة التميمي، وكان يَدَّعي الإسلام لما رأى النبيﷺ أعطى الأقرع بن حابس ومن معه من صناديد العرب مَنْ ذَهَب قَسْمُه ـ قال ذو الخويصرة مواجهاً النبيﷺ: «اعدل» فقال له النبيﷺ: «**ويحك ومن يعدل إن لم أعدل**؟!».

فإن الإعراب لنشأتهم في البادية كانوا بعداء عن مخالطة أهل العقول المستقيمة

وكانت أذهانهم أبعد عن معرفة الحقائق، وأملأ بالأوهام، وهم لبعدهم عن مشاهدة أنوار النبي ﷺ وأخلاقه وآدابه وعن تلقي الهدى صباح مساء ـ أجهل بأمور الديانة وما به تهذيب النفوس، وهم لتوارثهم أخلاق أسلافهم وبعدهم عن التطورات المدنية التي تؤثّر سمواً في النفوس البشرية، وإتقاناً في وضع الأشياء في مواضعها، وحكمةً تقليديةً تتدرج بالأزمان ـ يكونون أقرب سيرة بالتوحش، وأكثر غلظة في المعاملة، وأوضع للتراث العلمي والخلقي؛ ولذلك قال عثمان لأبي ذر لما عزم على سكنى الربذة: «تعهد المدينة؛ كيلا ترتد أعرابياً».

فأما في الأخلاق التي تحمد فيها الخشونة والغلظة والاستخفاف بالعظائم مثل الشجاعة، والصراحة، وإباء الضيم، والكرم ـ فإنها تكون أقوى في الأعراب بالجبلة، ولذلك يكونون أقرب إلى الخير إذا اعتقدوه، وآمنوا به.

ويجوز أن يكون (أشد) و(أجدر) مسلوبي المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما على طريقة قوله ـتعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[1].

فالمعنى أن كفرهم شديد التمكن من نفوسهم ونفاقهم كذلك، من غير إرادة أنهم أشد كفراً ونفاقاً من كفار أهل المدينة ومنافقيها. ١١/١٠ـ١٢

٢٦ـ وجملة ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ استئناف بياني للجواب على سؤال يثيره قوله ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ وهو أن يسأل سائل عن أثر كون الله ـتعالى ـ يَعْلَمُهم،

---

١ ـ وقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾. (م)

فأعلم أنه سيعذبهم على نفاقهم، ولا يفلتهم منه عدم علم الرسول -عليه الصلاة والسلام- بهم.

والعذاب الموصوف بمرتين عذاب في الدنيا؛ لقوله بعده ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد تحير المفسرون في تعيين المراد من المرتين، وحملوه كلُّهم على حقيقة العدد، وذكروا وجوهاً لا ينشرح لها الصدر.

والظاهر عندي أن العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد كقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي تأمل تأملاً متكرراً.

ومنه قول العرب: لبيك وسعديك، فأسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ.

والمعنى: سنعذبهم عذاباً شديداً متكرراً مضاعفاً، كقوله -تعالى-: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ وهذا التكرر تختلف أعداده باختلاف أحوال المنافقين، واختلاف أزمان عذابهم.

والعذاب العظيم: هو عذاب جهنم في الآخرة. ٢٠/١١

٢٧- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

لما كان من شرط التوبة تداركُ ما يمكن تداركُه مما فات، وكان التخلف عن الغزو مشتملاً على أمرين هما عدمُ المشاركةِ في الجهاد، وعدمُ إنفاقِ المال في الجهاد - جاء في هذه الآية إرشادٌ لطريقِ تداركِهم ما يمكن تداركُه مما فات وهو نفع المسلمين بالمال؛ فالإنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المالَ المعدَّ لنوائب

المسلمين؛ فإذا أُخِذ من المُخَلَّفين شيءٌ من المال انجبر به بعض الثلم الذي حل بمال المسلمين؛ فهذا وجه مناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها.

وقد روي أن الذين اعترفوا بذنوبهم قالوا للنبي ﷺ: هذه أموالنا التي بسببها تخلفنا عنك خذها؛ فتصدق بها، وطهِّرنا، واستغفر لنا، فقال لهم: «**لم أؤمر بأن آخذ من أموالكم**» حتى نزلت هذه الآية فأخذ منهم النبي ﷺ صدقاتهم؛ فالضمير عائد على آخرين اعترفوا بذنوبهم. ٢٢/١١

٢٨ـ **والسَّكَن**: بفتحتين ما يُسكن إليه، أي يطمأن إليه، ويرتاح به.

وهو مشتق من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه؛ لأن الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي؛ فتكون النفس كأنها غير مستقرة، ولذلك سمي ذلك قلقاً؛ لأن القلق كثرة التحرك؛ وقال ـتعالىـ: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ ومن أسماء الزوجة السكن.

أو لأن دعاءه لهم يزيد نفوسهم صلاحاً وسكوناً إلى الصالحات؛ لأن المعصية تَرَدُّدٌ واضطراب، كما قال ـتعالىـ: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

والطاعة اطمئنان ويقين، كما قال ـتعالىـ: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. ٢٣/١١

٢٩ـ **ولفظ «أواه» مثال مبالغة**: الذي يكثر قول أوه بلغاته الثلاث عشرة التي عدها في القاموس، وأشهرها أَوَّه بفتح الهمزة وواو مفتوحة مشددة وهاء ساكنة.

قال المرادي في شرح التسهيل: وهذه أشهر لغاتها، وهي اسم فعل مضارع

بمعنى أتوجع لإنشاء التوجع، لكن الوصف بـ«أواه» كناية عن الرأفة، ورقة القلب، والتضرع حين يوصف به من ليس به وجع.

والفعل المشتق منه (أواه) حقه أن يكون ثلاثياً؛ لأن أمثلة المبالغة تصاغ من الثلاثي.

وقد اختلف في استعمال فعل ثلاثي له، فأثبته قطرب، وأنكره عليه غيره من النحاة.

وإتباعُ ﴿لأَوَّاهٌ﴾ بوصف ﴿حَلِيمٌ﴾ هنا وفي آيات كثيرة ـ قرينة على الكناية، وإيذانٌ بمثار التأوه عنده.

والحليم: صاحب الحِلْم، والحِلْمُ ـبكسر الحاءـ: صفة في النفس، وهي رجاحة العقل، وثباتة، ورصانة، وتباعد عن العدوان؛ فهو صفة تقتضي هذه الأمور، ويجمعها عدم القسوة.

ولا تنافي الانتصار للحق لكن بدون تجاوز للقدر المشروع في الشرائع أو عند ذوي العقول.

قال[1]:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

٤٦/١١

---

١ ـ هو سعد بن كعب العنوي في أخيه أبي المغوار، ومنها:

حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت حُبى الشِّيب للنفس اللجوج غلوب

لقد كان أما حِلْمُهُ فمروَّحٌ علينا وأما جهلُه فعزيبُ (م)

سورة يونس

١ـ **سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة سورة يونس؛** لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس، أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب؛ فعفا الله عنهم لما آمنوا، وذلك في قوله ـتعالىـ: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾.

وتلك الخصوصية كرامةٌ ليونس ـعليه السلامـ وليس فيها ذكر ليونس غير ذلك، وقد ذكر يونس في سورة الصافات بأوسع مما في هذه السورة، ولكن وجه التسمية لا يوجبها.

والأظهر عندي أنها أضيفت إلى يونس تمييزاً لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ﴿ الر ﴾.

ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم نبي عوضاً عن أن يقال: (الر) الأولى و(الر) الثانية، وهكذا؛ فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت فواتحها حروفاً مقطعة؛ فكانوا يدعون تلك السور بآل حم وآل ألر ونحو ذلك.

وهي مكية في قول الجمهور؛ وهو المروي عن ابن عباس في الأصح عنه.

وفي الإتقان عن عطاء عنه أنها مدنية، وفي القرطبي عن ابن عباس أن ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله ـتعالىـ: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ إلى

قوله: ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾.

وجزم بذلك القمي النيسابوري.

وفي ابن عطية عن مقاتل إلا آيتين مدنيتين هما: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

وفيه عن الكلبي أن آية واحدة نزلت بالمدينة وهي قوله -تعالى-: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ إلى ﴿ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ نزلت في شأن اليهود.

وقال ابن عطية: «قالت فرقة: نزل نحو من أربعين آية من أولها بمكة ونزل باقيها بالمدينة، ولم ينسبه إلى معين».

وأحسب أن هذه الأقوال ناشئة عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلا بالمدينة، فإن كان كذلك فظن هؤلاء مخطئ، وسيأتي التنبيه عليه.

وعدد آيها مائة وتسع آيات في عد أكثر الأمصار، ومائة وعشر في عد أهل الشام.

وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور.

نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود، وأحسب أنها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة؛ لما سيأتي عند قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾. ١١/٧٧-٧٨

٢- من أغراض هذه السورة: ابتدئت بمقصد إثباتِ رسالة محمدﷺ بدلالة عجزِ المشركين عن معارضة القرآن دلالةً نُبِّه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بُني

على الكناية بتهجية الحروف المقطعة في أول السورة كما تقدم في مفتتح سورة البقرة، ولذلك أتبعت تلك الحروف بقوله -تعالى- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى أن إعجازه لهم هو الدليل على أنه من عند الله، وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

وأُتْبِعَ بإثبات رسالة محمد ﷺ وإبطالِ إحالةِ المشركين أن يرسل اللهُ رسولاً بشراً.

وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد اللهِ -تعالى- بالإلهية بدلالة أنه خالقُ العالمِ ومدبره؛ فَأَفضى ذلك إلى إبطالِ أن يكونَ لله شركاءُ في إلهيته، وإلى إبطال معاذيرِ المشركين بأن أصنامَهم شفعاءُ عند الله.

وأُتْبِعَ ذلك بإثبات الحشر والجزاء؛ فذلك إبطال أصول الشرك.

وتخلل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات، وبيانِ حكمة الجزاء، وصفةِ الجزاء، وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للناس.

ووعيد منكري البعث المعرضين عن آيات الله، وبضد أولئك وَعْد الذين آمنوا؛ فكان معظمُ هذه السورةِ يدور حول محورِ تقريرِ هذه الأصول.

فمن ذلك التنبيهُ على أن إمهالَ اللهِ -تعالى- الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمةٌ منه.

ومن ذلك التذكيرُ بما حل بأهل القرون الماضية لما أشركوا وكذَّبوا الرسل.

والاعتبارُ بما خلق اللهُ للناس من مواهبِ القدرة على السير في البر والبحر، وما في أحوال السير في البحر من الإلطاف.

وضَرْبُ المثل للدنيا وبهجتها وزوالها، وأن الآخرةَ هي دارُ السلام.

واختلافُ أحوالِ المؤمنين والكافرين في الآخرة، وتبرؤُ الآلهة الباطلة من عبدتها.

وإبطالُ إلهيةِ غير الله -تعالى- بدليل أنها لا تغني عن الناس شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة.

وإثباتُ أن القرآن منزَّل من الله، وأن الدلائلَ على بطلان أن يكون مفترىً واضحةٌ.

وتحديْ المشركين بأن يأتوا بسورة مثله، ولكنَّ الضلالةَ أعمت أبصار المعاندين.

وإنذارُ المشركين بعواقبِ ما حل بالأمم التي كذبت بالرسل، وأنهم إن حل بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأن ذلك لم يلحق قومَ يونسَ؛ لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب.

وتوبيخُ المشركين على ما حَرَّمُوه مما أحل الله من الرزق.

وإثباتُ عموم العلم لله -تعالى-.

وتبشيرُ أولياءِ اللهِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وتسليةُ الرسولِ عما يقوله الكافرون.

وأنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض كلهم.

ثم تَخَلَّص إلى الاعتبارِ بالرسل السابقين: نوحٍ ورسلٍ من بعده، ثم موسى وهارونَ.

ثم استشهد على صدق رسالة محمدﷺ بشهادة أهل الكتاب.

وختمت السورةُ بتلقين الرسول -عليه الصلاة والسلام- مما يُعْذَر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأن اهتداءَ مَنِ اهتدى لنفسه وضلالَ مَنْ ضَلَّ عليها، وأن اللهَ سيحكم بينه وبين معانديه. ١١/٧٨-٨٠

٣- **فجعل الشمس ضياءً**؛ لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تَهُمُّهُمْ مشاهدتُه بما به قوامُ أعمالِ حياتهم في أوقات أشغالهم.

وجعل القمر نوراً؛ للانتفاع بنوره انتفاعاً مناسباً للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل.

ولذلك جعل نوره أضعف؛ لينتفع به بقدر ضرورة المنتفع؛ فمن لم يضطرَّ إلى الانتفاع به لا يشعر بنوره، ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذي جعل ظلام الليل لحصوله.

ولو جعلت الشمس دائمة الظهور للناس لاستووا في استدامة الانتفاع بضيائها؛ فيشغلهم ذلك عن السكون الذي يستجدون به ما فَتَر من قواهم العصبية التي بها نشاطهم وكمال حياتهم. ٩٤/١١

٤- **والزيادة يتعين أنها زيادة لهم ليست داخلة في نوع الحسنى بالمعنى الذي صار علماً بالغلبة**، فلا ينبغي أن تفسر بنوع مما في الجنة لأنها تكون حينئذ مما يستغرقه لفظ الحسنى؛ فتعين أنها أمر يرجع إلى رفعة الأقدار، فقيل: هي رضى الله -تعالى- كما قال: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وقيل: هي رؤيتهم اللهَ -تعالى- وقد ورد ذلك عن النبيﷺ في صحيح مسلم وجامع الترمذي عن صهيب عن النبيﷺ في قوله -تعالى-: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم تبيض وجوهنا وتنجنا من النار وتدخلنا الجنة، قال: فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه».

وهو أصرح ما ورد في تفسيرها. ١٤٦/١١

٥ـ وقد أورد الشيخ ابن عرفة سؤالاً عن وجه التفرقة بين قوله: ﴿مَنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ وقوله: ﴿مَنْ يَنْظُرُ﴾ إذ جيء بضمير الجمع في الأول وبضمير المفرد في الثاني، وأجاب عنه: «بأن الإسماع يكون من الجهات كلها، وأما النظر فإنما يكون من الجهة المقابلة».

وهو جواب غير واضح؛ لأن تعدد الجهات الصالحة لأحد الفعلين لا يؤثر إذا كان المستمعون والناظرون متحدين، ولأن الجمع والإفراد هنا سواء لأن مفاد (مَنْ) الموصولة فيهما هو من يصدر منهم الفعل وهم عدد وليس الناظر شخصاً واحداً.

والوجه أن كلا الاستعمالين سواء في مراعاة لفظ (من) ومعناها، فلعل الابتداء بالجمع في صلة (من) الأولى الإشارة إلى أن المراد بـ (من) غير واحد معين، وأن العدول عن الجمع في صلة (من) الثانية هو التفنن، وكراهية إعادة صيغة الجمع؛ لثقلها لا سيما بعد أن حصل فهم المراد، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلي (يستمع) و(ينظر) ففعل (ينظر) لا تلائمه صيغة الجمع؛ لأن حروفه أثقل من حروف (يستمع) فيكون العدول استقصاء لمقتضى

الفصاحة. ١١/١٧٩-١٨٠

٦- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومعنى تَبَوُّؤِ البيوت لقومهما أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به.

وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل؛ إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن، وقد كانوا ساكنين أرض (جاسان) قرب مدينة منفيس قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية -كما بيناه في سورة البقرة- لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها.

واضطرب المفسرون في المراد من هذه البيوت، وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ؛ فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلون فيها، وربما حمل على هذا التفسير من تأوله وقوع قوله: ﴿وَأَقِيمُوْا الصَّلاَةَ﴾ عقبه، وهذا بعيد؛ لأن الله علم أن بني إسرائيل مفارقون مصر قريباً بإذنه.

وقيل: البيوت بيوت السكنى، وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت.

وهذا القول هو المناسب للتبوؤ؛ لأن التبوؤ: السكنى، والمناسب -أيضاً- لإطلاق البيوت، وكونها بمصر.

فالذي يظهر؛ بناءً عليه أن هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها؛ تهيئة للارتحال، وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في (جاسان) قرب مدينة فرعون، وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر

الخروج : أن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية؛ ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام، وأن ذلك أول ما سأله موسى من فرعون، وأن فرعون منعهم من ذلك، وأن موسى كرر طلب ذلك من فرعون كل ذلك يمنعه كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج، وقد صار لهم ذلك عيداً بعد خروجهم.

وقوله: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة، قاله ابن عطية عن ابن عباس. ١١/٢٦٥-٢٦٦

٧- **والقبلة:** اسم في العربية لجهة الكعبة، وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب؛ لأن قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب، فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجه إلى الجهة التي يصلون إليها، وهي قبلة إبراهيم؛ فيكون أَمْرُ بني إسرائيل يومئذ جارياً على الملة الحنيفية قبل أن يُنْسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس، ويجوز أن يكون موسى قد عبر بما يفيد معنى الجنوب، فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة.

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أن الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة.

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا (قبلة): إما بمعنى متقابلة، وإما بمعنى اجعلوا بيوتكم محل صلاتكم، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال.

وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة، أي جهة الكعبة.

وعن ابن عباس: «كانت الكعبة قبلة موسى».

وعن الحسن: «كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء».

وهذا التفسير يلائم تركيب ﴿ اجْعَلُوْا بُيُوْتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ لأن التركيب اقتضى أن المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة، فإذا افتقدنا التأويلات كلها لا نجدها إلا مفككة متعسفة خلا التفسير الذي عَوَّلنا عليه، وقد اختلفوا فيه؛ فهدانا الله إليه. ٢٦٦/١١

٨ـ ﴿ أَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾.٢٧٧/١١

اعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالة على أن فرعون الذي أرسل إليه موسى، والذي أتبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق، وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف، وآية سورة البقرة.

وفرعون هذا هو منفطاح الثاني، ويقال له (ميرنبتا) ـبباء فارسيةـ أو (منفتاح) أو (منيفتا) وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم (سيزوستريس) من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية، وكانوا في حدود سنة ١٤٩١ قبل المسيح.

قال ابن جريج: كان فرعون هذا قصيراً أحمر، فلا نشك في أن منفطاح الثاني مات غريقا في البحر، وأنه خرجت جثته بعد الغرق فدفن في وادي الملوك في صعيد مصر، فذكر المنقبون عن الآثار أنه وجد قبره هناك، وذلك يومئ إلى قوله ـتعالىـ: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾.

ووجود قبر له -إن صح بوجه محقق- لا ينافي أن يكون مات غريقاً، وإن كان مؤرخو القبط لم يتعرضوا لصفة موته، وما ذلك إلا لأن الكهنة أجمعوا على إخفائها؛ كيلا يتطرق الشك إلى الأمة فيما يمجد به الكهنة كل فرعون من صفات بنوة الآلهة.

وخَلَفَتْهُ في ملك مصر ابنته المسماة (طوسير) لأنه تركها وابناً صغيراً.

وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات مختلفة الصراحة والإغلاق.

ومن دقائق القرآن قوله -تعالى-: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيْكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾.

وهي عبارة لم يأت فيما كتب من أخبار فرعون، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن؛ إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي.

والظاهر أن الأمواج ألقت جثته على الساحل الغربي من البحر الأحمر، فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة وكان عبرة لهم. ١١/٢٨٠-٢٨١

٩- **والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس** أنهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس؛ توقعاً لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أن معاملة الله إياهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصية، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءً منقطعاً. ١١/٢٨٩

١٠ـ وقوم يونس هم أهل قرية نَيْنَوَى[1] من بلاد العراق، وهم خليط من الآشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر.

وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل المسيح، وقد تقدم ذكر يونس وترجمته في سورة الأنعام.

ولما كذبه أهل نينوى توعدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوماً، وخرج من المدينة غاضباً عليهم، فلما خرج خافوا نزول العذاب بهم، فتابوا، وآمنوا بالله، فقبل الله إيمانهم ولم يعذبهم.

والمذكور أنهم رأوا غيماً أسود بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً من حين توعدهم يونس ـعليه السلامـ بحلول العذاب، فعلموا أنه مقدمة العذاب، فآمنوا وخضعوا لله ـتعالىـ فأمسك عنهم العذاب. ٢٩٠/١١

---

١ ـ بفتح النونين بينهما ياء تحتية ساكنة، وبعد النون الثانية واو مفتوحة بعدها ألف، هي إحدى مدن بلاد أشور من العراق، كائنة على الضفة اليسرى من الدجلة، بناها الملك أشور سنة ٢٢٢٩ قبل الميلاد، وكانت مصطافاً لملوك أشور من عهد شلمناص الأول.